الكلام هو اللفظ المركب المفيد

شرح الأجـــرومية !

للدكتور زكى مبارك

ابتسم الزيات وقال : ما هذا التعسف الذى يقع فيه أصحابك الصوفية ؟

فقلت : وما شواهد ذلك التعسف ؟

فقال : ألم تعلم أن أحدهم شرح الأجرومية بطريقة صوفية ؟

* * *

ثم رجعت إلى نفسى أحاورها فى صمت هو أعنف ما يكون من الضجيج ، فقد تذكرتُ أن حالى فى دنياى كان حال الرجل الذى شرح الأجرومية بطريقة صوفية ، وأخشى أن أصير إلى ما صار إليه ، فلا أظفر من الناس بغير السخرية والاستهزاء !

ولـكن ، هل أملك التوبة من الشطط والجموح فلا أخدع الناس فى أوهامهم من وقت إلى وقت ، ولا أشرح لهم الأجرومية بطريقة صوفية ؟

وكيف أسكت عنهم وأنا أريد أن أطمئن إلى أن لهم وجوداً ذاتيًا يسمح لهم بالرضا والغضب ، والقهقهة والأنين ؟

إن القلم فى يد الـكاتب هو المِشرط فى يد الطبيب !

وكنت لعهد اشتغالى بالطب أعرف مصير المريض بعلامة صريحة ، هى إحساسه بوخز المِشرط ، فإن صرخ عرفت أنه مرجوّ العافية ، وإن سكت سكوت الجمود لا سكوت الصبر ، عرفت أنه صائر إلى الموت ...

وهل أنسى اليوم الذى سمعت فيه أقبح ألوان السباب من مريض أعملت فيه المِشرط بلا تهيب ولا ترفق لأنقذه من أظفار المنية ؟ !

ثم اتخذت من القلم مِشرطاً أعالج به أمراض القلوب بعد أن فرغت من علاج الأبدان ، فما الذى رأيت ؟

قضيت سنين بدون أن أسمع من مرضاى صرخة جزع أو شهقة بكاء ، فـكدت أيأس من سلامة مرضاى ، وهممت بتوديع مهنة الأدب كما ودعت مهنة الطب ، لأرجع فلّاحاً يصاحب الفأس والمحراث فى حقول سنتريس ...

ثم لطف الله بمرضاى فهداهم إلى الصراخ والأنين لأعرف أن الأمل فى نجاتهم ليس من المستحيلات

أما بعد فقد حان الوقت لشرح الأجرومية والألفية والسنوسية بطريقة صوفية

حان الوقت لشرح عجائب النهار وغرائب الليل

حان الوقت لعلاج العقول والقلوب والأذواق والأحاسيس

ولـكنى أخاف ...

ما الذى أخاف ؟

أخاف من عواقب القلم ما كنت أخاف من عواقب المشرط

والدولة تسأل الطبيب الذى يجنى على حياة مريض ، ولـكنها لا تسأل المريض الذى يجنى على حياة طبيب

وهل يعرف زملائى كيف هجرت مهنة الطب ؟

هجرت تلك المهنة هجراً غير جميل بسبب حادث رأيت به شبح الموت

كنت أعمل المشرط بيمناى فى جسد عليل فمسّ أصبعاً من يسراى فارتجفتُ ، لأن أساتذتى بكلية الطب فى بارِيس علموني أن العلم بخطر المرض قد يُفضى بصاحبه إلى الفناء ، ومن هنا جاز أن تصنع جرثومة واحدة بجسم الرجل الصحيح ما لا تصنع ألف جرثومة بجسم الرجل العليل

وفى ذلك الوقت علمت نفسى فقلت : إنما هى جرثومة فانية من جسم يدبّ إلى الفناء ، ولا خوف علىّ وأنا أطاول الدهر بجسم يضارع أجسام العمالقة ، وبعد يوم أو يومين أمنت عواقب ذلك الجرح ، ثم انصرفت إلى غير رجعة عن مهنة الطب

واليوم يصنع القلم ما صنع المشرط

أسمع صراخ مرضاى فأبتسم ، لأن صراخهم يشهد بأنهم أهلٌ للحياة ، ولـكن ذلك الصراخ تقع فيه أحياناً ألفاظ غلاظ ينزعج لها ذوق بعض الانزعاج ، فهل تكون هذه الألفاظ كتلك الجراثيم ؟

إن كان ذلك فسأستشهد فى ميدان الأدب بعد أن فاتنى الاستشهاد فى ميدان الطب ، وعند الله والحب جزائى !

وما خوفى من تلك الألفاظ الغلاظ وأنا بعافية وأستطيع التمرد على جميع الأدواء ، وفى صدرى من اليقين ما يزعزع رواسى الجبال ؟

وهل يصل الطبيب إلى شيء إذا عرف المبالاة بأوهام مرضاه ؟

لقد كتب مرضاى مايزيد على ألف مقال ، وأسمعونى صراخهم فى كل بلد توجهت إليه ، ولم أر منهم غير الاستخفاف بصُنع الجميل ، وكنت مع ذلك آية فى الصبر على مكاره العقوق ، فكيف أجزع وقد أمدتنى الأيام بقوة القلم والمِشرط ، كما أمدتنى بقوة الظفر والناب ؟

* * *

قال الزيات : الرسالة تنتظر منك مقالاً لعدد الهجرة لا تكفر فيه كما كفرت فى مقال السنة الماضية !

سبحان الله !

وأنا كفرت فى السنة الماضية ، يا زيات ؟

ألم تعلم ، يا زيات ، أن مقالى كان فرصة ذهبية لعشرات أو مئات يأكلون الخبز باسم الغيرة على الحق ؟ !

إن مقالى عن « النواحى الإنسانية فى الرسول » علَّم أقواماً سهر الليالى فى البحث والتنقيب ، فكيف تبخل فلا تعد ذلك المقال من حسناتى ؟ وكيف تنسى أننى هجت به صدوراً كنت أخشى عليها الموت بالصدأ والجمود ؟

وهل تصدِّق أن فى خصومى من يدرك عظمة الرسول كما أدرك ؟

إن بينى وبين الرسول صلة وثيقة هى البلاء بالدنيا والناس ، فكيف يتوهم قومٌ أنهم يغارون عليه أكثر مما أغار عليه ، وهم لا يتقدمون لنصرته إلا مدفوعين بالثمن الذى أعرف وتعرف ؟

إن فى خلق الله من يأكلون الشهد بفضل الرياء ، فكيف يؤذيهم أن نشرب أكواب الصاب والعلقم بسبب القول الصريح ؟

ألم يكف ما نعانى من الإيذاء فى سبيل الصدق حتى نشرب السم من أيدى المرائين ؟

وإلى متى يستريح المرضى من أمراضهم بالصراخ ؟

ألا يتقدم الطب فيجد للمرضى علاجاً غير الصراخ ؟

إن الصراخ كان صوت الطفل وكان أسلوبه فى التعبير عن ألمه قبل أن يعرف النطق ، فما بال قوم يصرخون وقد علمناهم أساليب البيان بالكلام المفيد ؟

مابال قوم يصرخون وقد هديناهم إلى النطق وشرحنا لهم الأجرومية بطريقة صوفية ؟

ما بالهم يصرخون وقد علمناهم أساليب الصبر الجميل ؟

ولكن لا بأس فالصراخ فن من التعبير عن الألم ، ولا يحس الألم غير الأحياء ، ومعنى ذلك أن مرضانا غير أموات ، ولله الحمد وعليه الثناء

قلت لنفسى : هذا زيد الذى كان يرانى من أشرف الناس ، وذاك عمرو الذى كان يرانى من أعظم الرجال ، وذلك بكر الذى كان يرانى من الأبطال ، فما بالهم ينوشوننى بلا ترفق ولا استبقاء وكنت لهم ظهيراً فى أحرج الظروف ؟

فأجابت النفس : أولئك مرضاك عاودتهم العافية على يديك فهم يشهدونك على أنهم أصبحوا من الأصحاء

فقلت : أما يملكون من التعبير غير هذا الأسلوب البغيض ؟

فقالت النفس : ألست أنت الذى قال بأن الكفر لا يكثر فى غير الأمم القوية ؟

ومن هذا الحديث عرفت أننى نقلت مرضاى من المرض إلى الصحة ، ومن الصحة إلى التمرد ، ومن التمرد إلى الجحود

أما بعد ، ولى فى كل لحظة « أما بعد » لأن ذهنى ينتقل فى عوالم الأفكار من ميدان إلى ميادين بسرعة البرق

أما بعد فقد عشت دهرى زاهداً كل الزهد فى خلق المودّات والصداقات ، لأن أهل زمانى لا يرون هذه الأواصر الجميلة إلا ضرباً من ضروب النافع ، وفيهم من يرى الشكر على المعروف أعظم من المعروف ، فلا يرضيهم إلا أن تعترف بأنك مَدين وإن طوقتَ أعناقهم بقلائد الجميل

وأنا والله راض عما يصنعون ، لأن اللغو الذى يلقوننى به من وقت إلى وقت يشهد بأنهم يملكون من الصحة ما يقدرون به على شتم الطبيب المجاهد الذى استعذب من أجلهم شقاءه بالدنيا والزمان

ولكن ما أصل البلاء الذى نعانيه من الناس ؟

يخاصمنى فريق باسم الأدب ، ويخاصمنى فريق باسم الدين

فأين يقع الحق مما يريد أولئك أو هؤلاء ؟

هل يستطيعون القول بأنهم لا يبتغون من مخاصمتي غير وجه الحق ؟

إن كان ذلك فأين ما هتفوا به من أن الشهرة التي ظفرت بها هي التي تضللني فتحملني على مجانبة الحق في بعض الأحيان ؟

وهذه الشهرة هي أصل تلك الشغائن والحقود ، ولكن ما الذي أصنع وقد هربت من الشهرة مليون مرة فكانت تلاحقني بلا هوادة ولا رفق ؟

دلوني على جريدة أو مجلة عرضت عليها أدبي بثمن أو بغير ثمن

دلوني على ناد ألقيت فيه محاضرة بدون دعوة

دلوني على عمل توليته بدون أن أستمد له بأهلية الفكر والعقل

هل سمتم حديث الإذاعة اللاسلكية ؟

يسألني الناس كل يوم عن سبب انقطاعي عن الإذاعة ، فأين فيهم من يعرف أن لي بمحطة الإذاعة صديقاً كريماً هو الأستاذ سعيد لطفي ؟ وأين فيهم من يعرف أن ذلك الصديق يعجب من انصرافي عن الإذاعة مع أن المستمعين يرحبون بصوتي كل الترحيب ؟ وأين فيهم من يعرف أن الحرص على الوقت هو الذي يضيع عليّ شرف التحدث إلى أصدقائي في مصر والأقطار العربية ، مع أن لتلك الأحاديث أجراً غير قليل ، ولو شئت لجعلته أجراً غير ممنون كما يصنع بعض الناس !

وأين يضيع وقتي ؟

وهل عندي وقت يصلح للحفظ أو الضياع ؟

وهل للوظف وقت غير السويعات التي يتكلف إحياءها بين الأهل والأبناء ؟

ومن تلك السويعات أخلق القرصة لمسايرة الحياة الأدبية فأقرأ جميع الجرائد والمجلات ، وأراجع ما يهمني النظر فيه من المؤلفات العربية والفرنسية ، وأكتب ما أراه من الملاحظات على ما أقرأ وما أسمع ، ثم أخلو بعد ذلك إلى قلمي في صحبة المغريت الذي سمتم أخباره في خطابي إلى الدكتور طه حسين !

وبهذه المناسبة أذكر أني ركبت الترو منذ أيام فرأيت بالقرب مني فتى يُشبه كلود ، فقطعت المسافة وأنا مرتاب في أنه كلود ، ثم عرفت في النهاية أنه كلود ، ولم أسلم عليه لئلا يتوهم أني أغضيت عنه كل ذلك الوقت

فكيف قضت الأيام بأن أجهل وجه ابن أخي ، وما عرف في طفولته أن لأبيه صديقاً أعرف مني بالود ، وأحفظ للهو ؟

ثم أرجع فأقول إن ما تقرأونه بقلمي من وقت إلى وقت هو عصارة تلك السويعات أو تلك اللحيظات ، فما غيظ بعض الناس من الشهرة التي جناها الصبر على سهر الليل ؟

الليل ؟ الليل ؟

وأين من يعرفون سهر الليل في هذه الأيام ، السهر في صحبة الورق والمداد ؟

كان من حق أن أصوّب سنان القلم إلى صدور من يأكلون السُحت ، صدور الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية وقد تمضي الأعوام ولا يزوّد أحدهم نفسه بكتاب ثمنُه خمسة قروش ، فضلاً عن المساهمة في البحث والتأليف

وكان من واجب من عابوا نشاطي أن يوجهوا بلامهم إلى الكسالى الظرفاء من أمثال فلان وفلان وفلان ، وهم قوم أعطاهم الزمن حقوقاً لن أنالها ولو عُمّرت عمر نوح ، لأن هياماً بصحبة الورق والمداد سيضيع عليّ جميع المنافع الدنيوية ، وقد أموت بسبب الكدح الموصول قبل أن يموت فلان مع أنه وُلد قبل أن يولد أبي . رحم الله أبي وأسبغ على ذلك الفلان ثوب العافية !

ثم ماذا ؟

ثم أوجه القول إلى من يتوهمون أنهم أحرص مني على الدين وأمري مع هؤلاء عجبٌ من العجب ، فقد شقيت ما شقيت في خدمة الدراسات الدينية ، ثم كانت النتيجة أن أتهم برقة الدين وأن يظنوا بحسن السمعة مع أن فيهم ناساً لا يعرفون أخبار المؤلفات الدينية إلا بالسماع

إسمعوا كلمة الحق مرة واحدة ، أيها الناس

الإسلام دين العدل والتوحيد ، ولكن أين من يخدمه بلا جزاء ؟

في « مصر الجديدة » نحو خمس وعشرين مدرسة أسسها رجال لهم عقائد من أتباع موسى أو المسيح . فهل في مصر الجديدة مدرسة أسسها رجال من أتباع محمد ؟

وفى « شبرا » نحو خمس عشرة مدرسة أسسها رجال من ذلك الطراز . فهل استطاع أشياخنا أن يحتلوا فى « شبرا » غير مسجد واحد أنشأته إحدى السيدات المسلمات ؟

وفى أسيوط مدارس أقامها أمثال أولئك الرجال ، فهل بين علمائنا من يقول إنه قدم حجراً واحداً لبناء معهد أسيوط الدينى؟

وفى الأزهر أكثر من سبعمائة مدرس ، فهل فيهم من يرضى أن يعيش باللقمة كما يعيش المكافحون من الفرير والجزويت ولهم مدارس فى أكثر بقاع الأرض ؟

وفى مصر مدارس كثيرة تديرها الراهبات ، فهل بين علمائنا من خلق الروح الدينى فى زوجته فأنشأت مدرسة لتثقيف الفقيرات واليتيمات ؟

إن الأزهر يرسل وعاظاً لبعض الأقطار البعيدة من حين إلى حين ...

ولكن هل تعرفون مصاير أولئك المبعوثين ؟

إذا قامت حرب فى الحبشة أو فى الصين صرخوا واستغاثوا وكلفوا الدولة ردهم إلى أوطانهم فى أقرب وقت !

فهل سمعتم أن مبشراً مسيحيا ترك مقر عمله بسبب الحرب ؟

ومع ذلك يقرأ علماؤنا مقالات رجل مثلى حرفاً حرفاً ليبحثوا عن لفظة نابية يثيرون حولها الأراجيف

ومن يكون المؤمنون إذا حُرِم رجلٌ مثلى نعمة الإيمان الصحيح ؟

آه ، ثم آه ! !

الجهاد فى سبيل الأدب ضائع ، والجهاد فى سبيل الدين ضائع فماذا أصنع وقد شقيت بوطنى وزمانى ؟

من زَغَب الظلم أخذت الخيوط لصياغة الورق

ومن دم الظلم أخذت الحديد لسنان القلم

ومن غضبات الظلم أخذت الكهرباء التى يطالعكم بها بيانى

وعن جنون الظلم نقلت إليكم أقباس الجنون ، وهو على سنان قلمى أشد تماسكاً من العقل

وبفضل الظلم رأيتمونى دائماً من أنصار العدل

زكى مبارك

صوت الزوبعة !

شفتاك أغنيتان

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

شَفَتَاكِ أُغْنِيَتَانِ نا ... عَمَتَانِ فى وَتَرٍ حَزِينْ

صَبَغَتْهُمَا بِلَهِيبِهَا الـ ... ـقُدْسِيِّ نارُ المُغْرَمِينْ

وَشَدَتْهُمَا شَفَتَاكِ لِلـ ... ـلهِ طاهِرَةُ الرَّنِينْ

أَزَلِيَّةُ الأَنْغَامِ تَيَّـ ... ـمَ سِحْرُهَا قَلْبَ السِّنِينْ

فَاهْتَزَّتَا حِيناً ، وَنَو ... رُكِ مَدَّ فَوْقَهُمَا السُّكُونْ

فَإِذَا هُمَا شَفَقَانِ فى ... أُفُقٍ تَضِلُّ بِهِ العُيُونْ

مُتَوَهِّجَانِ عَلَى سَنـ ... ـكِ مِنَ الصَّبَابَةِ وَالحَنِينْ

سَجَدَتْ لِطَيْفِهِمَا التَّمَا ... ثُمُ فى شِفَاهِ السَّاحِرِينْ

وَسَجَتْ جِرَاحَاتُ المَسَا ... ءِ عَلَى قُلُوبِ الحَائِرِينْ...

إِلاَّ جِرَاحًا فى مَسَا ... ءِ صَاحِبَاتٍ بِالأَنِينْ

سُلْوَانُهَا شِعْرُ الشَّفَا ... ءِ الصَّامِتُ النَّغَمِ الحَزِينْ!

محمود حسن اسماعيل

صدرت الطبعة الجديدة من :

تاريخ الأدب العربى

بقلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة الرسالة
الثمن ٢٠ قرشا